الفصل الثاني

فقه الانتماء إلى المجتمع والأمة بين المفهوم العقدي والإجرائي

عمران سميح نزال[1]

مقدمة

يتحقق وجود الإنسان في ثلاثة ميادين رئيسة: الوجود الفردي للإنسان، والوجود الاجتماعي للناس، والوجود السياسي للدول. والإنسان بفطرته يبذل جهده العلمي والعملي لإثبات وجوده الناجح في كل هذه الميادين، وإلا في اثنين منها، أو بأحدها على الأقل. وتمثل الميادين الثلاثة ثلاث دوائر حياتية يمكن أن توصف: بالدائرة الحياتية الصغرى، والدائرة الحياتية الوسطى، والدائرة الحياتية الكبرى.

الدائرة الصغرى: هي دائرة الإنسان الخاصة في وجوده النفسي والعقلي والثقافي، وتوصف بالدائرة الشخصية، فالشخص إنسان مستقل في جسمه وعقله.

الدائرة الوسطى: هي الدائرة الاجتماعية، التي يوجد فيها الإنسان في وجود أسري أو عائلي أو عشائري لأسباب طبيعية في المولد والتكاثر والسكن والعيش وغيرها، وتوصف بالدائرة الاجتماعية، سواء كان في أسرة عائلية أو قبيلة أو عشيرة أو قوم أو أمة. وفي هذه الدائرة توصف العلاقة بين الأفراد مع بعضهم بعضاً بالرابطة الاجتماعية والانتماء الاجتماعي.

---

(1) باحث في الدراسات الإسلامية والفكر السياسي. الأردن. omran_nazal@yahoo.com

الدائرة الكبرى: هي الدائرة السياسية، التي يوجد فيها الإنسان في وطن أو دولة أو في نظام سياسي ينتمي إليه، ويلتزم بدستوره وقوانينه وشريعته، سواء كان مواطناً أو نائباً أو وزيراً أو سفيراً أو رئيساً. وفي هذه الدائرة توصف العلاقة بين الفرد والمجتمع والدولة بالمواطنة والانتماء السياسي.

ولكل دائرة من هذه الدوائر وجود مادي وهوية معنوية، فالوجود المادي يمكن أن يكون طبيعياً أو مكتسباً، أمّا الوجود المعنوي فلا يكون إلا مكتسباً عقلياً وفكرياً، سواء كان مصدره الدين أو الفلسفة، وتكون معايير قوة الأفراد والمجتمعات والدول بحسب درجات قوة الرابطة والانتماء فيما بينها، سواء كانت لأسباب مادية أو معنوية أو الاثنين معاً.

إن الإنسان أي إنسان في سؤال دائم مع نفسه عن الدائرة التي يسعى للانتماء إليها والارتباط معها، للعيش فيها والاطمئنان إليها والتعاون معها، في معادلة جلب المنافع ودفع المفاسد، فحيثما وجد منفعة ذهب إليها، وإن تطلبت خروجه من دائرة إلى أخرى، ومن استبدال رابطة بأخرى، سواء كانت ثقافية أو دينية أو مذهبية أو غيرها، أو باستبدال مستوى اجتماعي بآخر، أو باستبدال مستوى سياسي بآخر أو غيره، وهذا يدخله في معترك اجتهاد معرفي وعلمي في تطوير نفسه والارتقاء من دائرة إلى أخرى، والكشف عن سبل الوصول إلى المكانة التي يصبو إليها، فلا يقف عند الدائرة الخاصة الشخصية، التي تقول له عليك بخاصة نفسك، وإنَّما التي تدخل إلى الدائرة الاجتماعية، فيشارك الناس في أفراحهم وأحزانهم، في فقرهم وغناهم، في سيئاتهم وحسناتهم، آخذاً بأنَّ الذي يعامل الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم.

ثمّة تنافس دائم بين الأفراد والمجتمعات والدول على المكانة الفضلى، والرابطة الأنقى والأقوى، ولقد تاهت البشرية كثيراً في مسيرة تنظيم العلاقة ونوع الرابطة بين الإنسان الفرد مع المجتمع ومع الدولة، فصاغت الشعوب

المناضلة عبر تاريخها الطويل نظريات اجتماعية وسياسية في تقديم مصالح الفرد أو المجتمع أو الدولة، وقدمت ثورات رأسمالية غربية مصالح الأفراد على مصالح المجتمع والدولة معاً، وقدمت ثورات شرقية اشتراكية مصالح الدولة والمجتمع على مصالح الأفراد، في تجارب ومغامرات فلسفية وسياسية أضاعت الشعوب والمستضعفين والعمال في أطماع الزعماء لعقود وقرون طويلة في الشرق والغرب. ولذلك كان الناس أفراداً أو مجتمعات أو دولاً بحاجة إلى القيم الإنسانية العادلة التي تعمل على تكوين الأفراد الصادقين، وبحاجة إلى القيم الاجتماعية العادلة التي تعمل على تكوين المجتمعات الطاهرة، وإلى القيم السياسية العادلة التي تعمل على تكوين الدول الآمنة، حتى لا يدخل الناس في قتل أنفسهم، ولا يهلكوا مجتمعاتهم، ولا يدمروا دولهم بأيديهم.

إنَّ الإسلام في نظرته إلى هذه الدوائر الثلاث جاء ليهدي الناس للتي هي أقوم، في حياتهم الشخصية الفردية، وفي حياتهم الاجتماعية، وفي حياتهم السياسية، فأحلَّ محل مفهومِ الذاتِ الأنانية، الذاتَ الزكية المحبة، المؤثرةَ لغيرها على نفسها؛ ومحلَّ النفسِ الفَاجرة، النفسَ المطمئنة؛ ومحلَّ الأممِ الظالمة، الأممَ المتعلمة الوسطية العادلة؛ ومحلَّ المجتمعات المترفةِ، المجتَمعات الطاهرةَ الزكية؛ ومحل الدولِ الفاسدة، الدولَ الصالحة والمصلِحة. وجاء الإسلام في عقيدته وشريعته يصلح حياة الأفراد والناس، ويهديهم للتي هي أحسن، فيزيل عنهم الكراهية والبغضاء ويجعلهم إخوة في الإنسانية، وأمة واحدة في الدين، ولغيرهم مسالمين وناصحين ومكرمين.

وللإسلام في تنظيم رابطة الإنسان بالمجتمع والدولة أساسان متميزان، هما:

- الإيمان بالله، وأعلى درجات الإيمان بالله إخلاصُ العبادة له، بإقامة الصلاة فرادى وجماعات.
- فعل الخير والعمل الصالح، الذي ينفع الإنسان نفسَه وينفع من يتعامل معهم من الناس. وأعلى درجات فعل الخير إيتاءُ الزكاة، فرادى وجماعات، وفعل

الزكاة فردياً هي تزكية أخلاقية، وفعل الزكاة جماعياً نفع اقتصادي ومالي للمحتاجين من الناس، والزكاة حق مالي سياسي للدولة على الأفراد كذلك.

الصلاة صلة بالله تعالى في العبادة الفردية وهي انتماء للجماعة في العبادة الجماعية، والزكاة صلة بالله تعالى في العبادة الفردية، وانتماء للجماعة في دفعها للفقراء والمساكين بإشراف أجهزة الدولة الأمينة؛ أي إنَّ الإسلام ليس ديناً فردياً في عبادته وإنَّما هو ديني اجتماعي، محوره الارتباط بالمجتمع والانتماء للأمة والجماعة في كل عبادة يؤديها المؤمن، والمسلم المؤمن لا يعيش دون انتماء للإسلام والمسلمين إطلاقاً، لأنَّ عبادته مرتبطة بالجماعة والمجتمع وجوداً وعدماً، وما جاء في الإسلام من تشريعات للمجتمع والأمة والجماعة إنَّما جاءت لتنظيم وجودها، وطهارة تكوينها، والحفاظ على قوتها، وحماية بيضتها، وإدارة اختلافها؛ أي إنَّ الإسلام أدخل مفهوم الأمة في ضبط العلاقة بين الفرد والمجتمع والدولة، وجعل الدولة أو المدينة أحد أدوات ومظاهر وجود الأمة وقوتها وعزتها.

فإذا ما وقع الضعف العام بين المسلمين، فإنَّه لا يكون بالضرورة بسبب ضعف الانتماء للمجتمع، ولا بسبب ضعف الانتماء للأمة، وإنما بسبب ضعف تنظيم الانتماء، وضعف في القدرة على إدارة الانتماء كما أراده الشرع وقرَّره، وعندها لا ينبغي أن تكون معالجة الضعف بالدعوة إلى الانتماء فقط، وإنما بوضع الخطط الواضحة والمنهجية العلمية التي تعالج الضعف وتنظم الانتماء، وهو ما يتطلب أن يتم تناوله في نقاط نقترح منها: فهماً صحيحاً للواقع الاجتماعي والسياسي، ومعرفة أسباب الضعف الحقيقية ومعالجتها، وإيجاد السبل الكفيلة بحفظ الانتماء قوياً في مجالاته كافة، وإدارة التباين بين مجالات الانتماء للمجتمع والأمة في نطاق التكليف والاستطاعة الشرعية، وأخيراً نشر الوعي الصحيح عن الانتماء العقدي والإجرائي للحفاظ على الثوابت الدينية والمدنية.

إنَّ رسالة الإسلام شرَّعت في تعاملها مع الإنسان والمجتمع والأمة والدولة

رؤى واضحة، وتربية شرعية واعية، فبدأت في بناء الإنسان المسلم المؤمن بوصفه إنساناً وكائنًا معرفياً قابلاً للتعلم والتثقف، فتخاطب الإنسان بعقله ليختار بإرادته صلاحه ومنفعته الدنيوية، وجعلت من تعلُّمه وعلمه وثقافته وإيمانه عبادةً علمية متقدمة على عبادته العملية، ثم وجَّهتْه وهو شخص مسلم مؤمن للارتباط بإخوانه المسلمين المؤمنين على مستوى تكوين المجتمع في نطاقه الخاص العرقي أو القومي أو غيره، وعلى مستوى تكوين الأمة المسلمة الممتدة في الزمان والمكان، في التاريخ والحاضر والمستقبل، وفي الوطن الخاص والوطن العام، في نطاقه العقدي والإيماني والفقهي والسياسي الشرعي.

إنَّ المسلم يجمع في انتمائه لدينه وأمته انتماءً لأسرته وقريته ومدينته وبلده ومجتمعه ودولته، دون تعارض ولا تناقض، فلا يعيش الإنسان المسلم وحده منفرداً عن مجتمعه ولا عن أمته، والمسلم في انتمائه لمجتمعه وأمته، لا يدخل في نزاعات ولا في صراعات بين تعدد الانتماءات وتنوعها، وإنَّما في توافق وتعاون وتكامل وفق أحكام الإسلام وقيمه، وفي ارتقاء في الانتماء من دائرة إلى أخرى، ما لم توضع أمامه العقبات والعراقيل التي تحدُّ من حريته في التعبير عن الانتماءات التي يؤمن بها ويعمل لصالحها.

إنَّ مبدأ الانتماء في الإسلام هو انتماء إلى الدين أولاً، وانتماء إلى أمة المسلمين ثانياً، وانتماء إلى الدائرة السياسية ثالثاً، والإسلام ينظر إلى الدوائر الثلاث على أنَّها دوائر إيمانية، يزيد إيمان الإنسان المسلم وينقص بحسب درجات انتمائه إلى هذه الدوائر، وصدقه وتقواه وصلاحه وإصلاحه فيها، والإسلام شرع لكل دائرة فأعطاها حقها، وبالأخص في المستوى الوسط؛ مستوى المجتمع والأمة، فهي أهم مرحلة في تكوين الأمة المسلمة كما في القرآن الكريم وفي العهد النبوي، وهو ما يحتاج إلى تركيز في هذا البحث من خلال تسليط الضوء على العقود الاجتماعية والسياسية التي نظمت الحياة الاجتماعية في بيعة العقبة الأولى، ونظمت الحياة السياسية في بيعة العقبة الثانية، ثم نظمت حقوق المواطنة

وواجباتها لكل مواطني المدينة المنورة، في صحيفة المدينة، في تقرير مبدأ المواطنة القانونية لكافة مكونات المدينة المنورة الطبيعية والمعنوية.

إنَّ القضية الأساسية التي ينبغي النظر إليها باهتمام هي دور الإنسان في هذه العملية من حيث تكوينه وبناؤه الفردي، بوصفه الدائرة الأولى، ودور المسلم في تكوين الأمة، ودور الأمة في الحفاظ على المسلم بوصفها الدائرة الثانية، الحافظة والمحتوية بإحسان للدائرة الأولى، وأما الدائرة السياسية الثالثة فإنها تحصيل لما يسبقها من تكوين، فهي إضافة نوعية لما يتم في التكوينين السابقين، فالأصل هو الإنسان وقوته الإيمانية والعقلية في الدائرة الإيمانية الأولى، والقوة الحقيقية في الدائرة الإيمانية الثانية؛ دائرة الأمة والانتماء إليها، والمحصلة هي الدائرة الإيمانية الثالثة، ولذا فإنَّ البحث سوف يتناول المحاور الآتية:

أولاً: الانتماء المعرفي للإنسان المؤمن

الإنسان هو محور رسالات الله إلى الناس جميعاً، والمعادلة الصحيحة بين الإنسان والإسلام تقوم على الأساس المعرفي في فهم الإنسان، وفي فهم الإسلام. والمدخل الصحيح في التعامل مع الإسلام وفهم أركانه ومحاوره الأساسية هو المدخل المعرفي الذي يقدم النظريات المعرفية المطلوبة إنسانياً ودينياً، أما إنسانياً فبالوصف الصادق للإنسان في بعده المعنوي وهو أنه مخلوق قارئ[(1)]، ميزته الرئيسة أنه يقيم حياته على أسس معرفية وعقلية وعلمية، وهذا الوصف المعرفي للإنسان هو ما سعى الإسلام إلى تفعيله في تعامل الإنسان مع الله تبارك وتعالى من خلال القرآن الكريم أولاً، ومن خلال متابعة المسلم لسنن النبوة وسيرها وأخلاقها.

إنَّ أول موضوع تناوله الوحي، في رسالة الإسلام الخاتمة التي جاء بها محمد ﷺ، هو القراءة، وذلك في اللقاء الأول بين النبي عليه الصلاة والسلام

(1) نزال، عمران سميح. **فهم الإنسان "النظرية المعرفية العربية"**، عمان: دار القراء، ودمشق: دار قتيبة، الطبعة الأولى، 1422هـ/2002م، ص209.

وجبريل عليه السلام: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:1-5]. فالإنسان هو مخلوق قارئ، وفعل القراءة هو المدخل المعرفي والعقلي والعلمي لدخول الإنسان في الإسلام دخولاً صحيحاً وإرادياً، بغض النظر عن جنسه أو قومه أو نوعه أو لونه أو لسانه، ذكراً أو أنثى، صغيراً أو كبيراً.

لقد وصف القرآن الكريم فعل الإنسان المقبل بوجهه على الله تعالى بالإسلام، فالإسلام إقبال على الله تبارك وتعالى، وسمَّى القرآن من يقوم بهذا الفعل من البشر **بالإنسان المسلم**، ووصف الفعل المعرفي الذي يقوم به المسلم بالإيمان، فالإيمان فعل معرفي للمسلم، يبدأ بالقراءة والعلم والتصديق والاطمئنان، وسمَّى القرآن المسلم القارئ والمصدق علمياً بما جاء به الإسلام **بالمؤمن**، فالمسلم من أبرم عقد سلام مع الله تعالى بالرضا والقبول، والمؤمن من التزم عقد العلم، فعمل بكل ما أمر الشرع به، والتزم عقد الحكمة فانتهى عن كل ما نهى الشرع عنه، لأن الحكمة هي الامتناع عن فعل القبائح.

إن الإسلام عقد يوثق العهد بين الله تبارك وتعالى مع الإنسان، فإذا وافق الإنسان على ذلك العقد سمي مسلماً، قال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (22) وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [لقمان:23-22].

أما الإيمان فهو التصديق بالعلم الذي يحدث الأمن في النفس والمجتمع والدولة؛ أي إن الإيمان هو التصديق بالعلم الذي ينظم حياة الإنسان المسلم، ويرشد عمله في حياته الشخصية الخاصة، فهو علم مصدق وعمل مصلح، ولذلك توجهت كثير من الآيات الإيمانية لمخاطبة الإنسان بالصيغة الفردية المطلقة، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: 112]، وقال تعالى في سورة غافر المكية: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ

obeikan.com

﴿ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾[غافر:40] ، وقال تعالى: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [النحل: 97].

والعمل الذي يقوم به المسلم وهو مؤمن يوصف بالعبادة، والعبادة في الإسلام تنقسم إلى نوعين هما: العبادة العلمية والعبادة العملية. فالعبادة العلمية: أفعال معرفية، وهي الإيمان، الذي دعا إليه القرآن كل مسلم ومسلمة. والمعنى اللغوي للإيمان هو التصديق، والمعنى الشرعي هو التصديق بالعلم المنزل من الله تعالى على رسوله محمد عليه الصلاة والسلام في القرآن الكريم، ولا يتم التصديق بالعلم المنزل حتى يتحول العلم وهو كلام الله تعالى في كتابه إلى علم في عقل كل مسلم وقلبه؛ أي حتى يتحول القرآن إلى عقل علمي، ولذا فإن إيمان المسلمين أفرادًا يتفاوت بالقدر الذي يعرفونه ويعقلونه ويعلمونه ويصدقونه مما أُنزل على النبي في القرآن الكريم، والبيان النبوي له.

إن المعرفة والعلم أساس العبادة العلمية وهي أساس الإيمان، ومن أراد زيادة إيمانه فعليه زيادة فعله المعرفي وعبادته العلمية، بزيادة القراءة تلاوة وتدبراً وتأويلاً للعلم المنزل. والفعل المعرفي والعبادة العلمية واجبة على كل مسلم ومسلمة، وواجبة على كل جماعة مسلمة ومؤمنة، لأنَّها أساس لكل عبادة عملية في العبادات الفردية، وبعد ذلك تكون أساساً لكل العبادات والمعاملات الجماعية التي تقوم بها جماعة المؤمنين بقراءة علمية شورية.

إن التأسيس المعرفي للإيمان هو أساس الانتماء المعرفي عند الإنسان، فهو وَعْيٌ على مفهوم الانتماء للقيم والأفكار والأحكام التي يؤمن بها المسلم، وهو وعي على معنى الانتماء للدين معرفياً وعقلياً، فالانتماء المعرفي هو الانتماء القائم على القناعة بالقيم الدينية، بكافة أنواعها العقدية والفقهية والسياسية والأخلاقية وغيرها، ولذلك كان التأسيس المعرفي هو الانتماء الواعي، فهو وعي الانتماء، وهو أساس كل انتماء يأتي بعده، أو يُبنى عليه، سواءً كان انتماءً

اجتماعياً أو سياسياً أو غيره، فلا انتماء من غير وعي، ولا وعي من غير تأسيس معرفي صحيح.

إنَّ أول ما ينبغي الاعتناء به في كل عصر وجيل يحل فيه الضعف بالمسلمين هو تجديد الوعي المعرفي، بتجديد حرية الإنسان وتجديد فاعليته المعرفية والعلمية، حتى يتجدد فيه معنى الانتماء إلى القيم الدينية بقناعة عقلية وتفكير علمي، وهو من مقاصد استخلاف الإنسان في الأرض، وقيامه بما استخلفه الله تعالى به، وحتى يقوم بحق الأمانة التي حملها، وحتى يشارك بها كل مسلم ومسلمة دون استثناء. لقد جعل الله الإنسان خليفة، بمعنى مخلوقاً حراً متعلماً، حتى يشكل قناعته المعرفية والعلمية ويقوم بعبادته بإرادته الحرة، وعندما يدرك أنه مستخلف فإنه يدرك أن معه شركاء في الاستخلاف، وهذا من أسس الانتماء المعرفي للإسلام.

وإن من أسس فهم الانتماء المعرفي للإنسان في الإسلام معرفة الفارق بين خلافة آدم عليه السلام، وخلافة الناس في الأرض، وخلافة داود عليه السلام. فخلافة آدم هي التي أخبرنا الله تعالى بها في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 30]. وخلافة الناس أخبرنا عنها في قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل:62]، وخلافة داود هي التي أخبرنا عنها الله تعالى بقوله: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: 26].

الخلافة الآدمية تعني الوعي على مكانة الإنسان في الأرض، التي تبدأ بحرية الاختيار وحرية التكليف ومسؤوليته، وأن الإنسان صاحب إرادة حرة في العلم والعمل، وأن تخوف الملائكة كان منصباً على الإفساد في الأرض وسفك الدماء؛ أي إنها كانت متخوفة من أشنع الأفعال التي يمكن أن يرتكبها الإنسان إذا كان مخلوقاً حراً ودون علم. والخلافة الآدمية تقدم عناصر بناء النظرية المعرفية

obeikan.com

الإنسانية، التي تقوم على أن الإنسان بفطرته مسلم، وباتباعه للرسل مؤمن؛ أي مسلم مصدق بالعلم الحق ومطمئن به. فالتقاء المؤمنين هو التقاء علماء، يديرون شؤونهم بالشورى العلمية والعملية.

فإذا ما تحققت معاني الاستخلاف الآدمي في أحد بني آدم، وكان فرداً واحداً من دون الناس في قيمه وعلمه وتصديقه وإيمانه وعقيدته وعلمه وعبادته، فقد تشكل عنده وَعْيُ الانتماء للحقيقة وهو فرد، وقصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام في القرآن من أجلى صور وعي الانتماء الفردي للحقيقة، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: 74]، أي إن في انتماء إبراهيم المعرفي للحقيقة تَخَلٍّ عن انتمائه التراثي لأبيه في عبادة الأصنام، بحثاً عن انتماء معرفي آخر يصدق به ويقنعه ويكون فيه على يقين معرفي. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 75-79].

ففي هذه الآيات الكريمة وثَّق إبراهيم يقينه وانتماءه للحقيقة وأعلن عن تخليه عن تراث الضلال عند قومه وشركهم بعد أن تخلى عن ضلال أبيه، فكان بوعيه المعرفي من الموقنين، بأن الوجهة المعرفية الصحيحة هي لله الذي فطر السموات والأرض، وفي يقينه المعرفي الذي ينتمي إليه واجه أباطيل قومه، يقول تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: 80-81].

لقد وقف إبراهيم بوعيه المعرفي أمام محاججة قومه له فحاجهم أولاً، وكان بوعيه المعرفي وفي انتمائه للحقيقة وحيداً لا يشاركه فيها أحد، ولذا حقق لنفسه

obeikan.com

الأمن الفكري كذلك، وقد مثَّل في هذه المحاججة بمفرده فريقاً مقابل قومه، وميزته انفراده عنهم بالحجة والوعي والأمن، وأطلق عليه القرآن الكريم في موضع آخر وصف الأمة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: 120]. لقد تميّز إبراهيم عليه السلام عن قومه في حجته ووعيه وعقله وعلمه وإيمانه وعمله، فهو نموذج في وانتمائه المعرفي الواعي للحقيقة من الإنسان ولو كان فرداً، فكان بشراً متميزاً عن قومه بقيمه وانتمائه قبل نبوته، ثم كان أمة وحده بقيمه الإيمانية، وكان أمة للمؤتمين به من أزواجه وبنيه وأقاربه بعد ذلك.

ولكن إطلاق وصف الأمة على الفرد الواحد ليس هو الاستعمال الأعم في القرآن الكريم، ولا في كلام العرب، لأنها تطلق على الجماعة، وقد نبّه القرآن الكريم على هذا الاستعمال الخاص الذي يمكن أن يتأسى به كل إنسان يمتلك الوعي ويتميز في الانتماء، باتباعه للحق ولو كان وحده دون قومه، كما في قوله تعالى: " ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: 1-6].

وفي هذه السورة القرآنية المباركة بيان لمفهوم الانتماء المعرفي الحق، فالكافرون جماعة، والقائل بعدم الانتماء لهم في العبادة شخص واحد، فهو الذي ينفي عن نفسه الانتماء لهم في عبادتهم، فقال لهم: لا أعبد ما تعبدون، أي لا أنتمي معرفياً لما أنتم عابدون له، فالمؤمن يتميز بانتمائه المعرفي للحقيقة ولو كان فرداً، ولذلك جاز أن يكون أمة وحده بالمعنى الخاص للأمة، لأنه يقابل بمفرده معتقدات قومه، فالأمة هنا وصف للإنسان بقناعته ووعيه وإسلامه وإيمانه لرفع مكانته المعرفية والمعنوية وتكريماً له.

ثانياً: الانتماء الاجتماعي ومقوماته الإسلامية

المجتمعات البشرية قديمة جداً، وقد تطور سلوكها عبر التاريخ من سلوكات طبيعية بدائية إلى سلوكات مكتسبة وراقية. وقد كان من مهمة الرسالات والنبوات

ترشيد السلوك الجماعي للبشر، ونقله من وجود طبيعي جاهلي إلى وجود معنوي قويم، في عملية هداية وتعليم للإنسان والناس معاً، وقد جعل الله من نعمه على الناس تمكينهم في الأرض بالخلافة، فقال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: 60–62].

إن في هذه الآيات الكريمة بياناً لوظيفة الناس في الأرض، وهي الخلافة؛ بمعنى السيادة على الأرض بالعلم النافع والعمل الصالح، وهذا النوع هو الثاني من الاستخلاف في الإسلام، فقد استخلف المولى عز وجل آدم بصفته الفردية كما سبق بيانه، وفي هذه الآيات استخلاف للناس وهم مجتمعات بشرية، حتى تتحقق مقاصد الخلق وحكمته، في عبادة الخالق وعمران الخلائق.

إن هذه الخلافة هي من نعم الله تعالى على الناس، لأن حكمته اقتضت أن يكون وجود الناس في الأرض شعوباً وقبائل يخلف بعضهم بعضاً، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ [فاطر: 93].

لقد تعامل القرآن الكريم مع التجمعات البشرية بمكوناتها الطبيعية والمعنوية، فأرسل الله الرسل إلى الأقوام كافة بحسب ألسنتهم، وتعامل الإسلام مع المكونات الطبيعية للناس في الأقوام والعشائر والقبائل وغيرها، وطالبها أن تسلك سبل الهدى والتعارف والتعاون على البر والتقوى وعدم التعاون على الإثم والعدوان. لقد تعامل الإسلام مع التكوينات الطبيعية للناس، وثبتها على ما هي عليه من مكونات قومية أو عشائرية، ودعاهم للتي هي أقوم في معايشهم ومعاملاتهم وعلاقاتهم مع بعضهم، ونظم علاقاتهم في عقود اجتماعية

وسياسية، لتنظيم وجودهم المعنوي، وأقام وجود الإنسان المسلم المؤمن على الأساس المعرفي وعياً وانتماءً للحقيقة، وأقام وجود الجماعة المسلمة المؤمنة على الأساس المعرفي وعياً وانتماء للحقيقة، ووصف الجماعة المسلمة المؤمنة بالأمة، وجعل الارتباط بها جزءاً من الدين، والانتماء إليها عقيدة وشريعة وأخلاقاً، كما سيأتي.

وقد اهتم الفلاسفة وعلماء الاجتماع بالإنسان والمجتمع وبحثوا في مقومات المجتمعات البشرية وكيفية دراستها وتعريفها وتطويرها، وقد اختلفت الرؤى الفلسفية في تعريف المجتمع، فذهب بعضها إلى أن المجتمع نظام قائم، بمعنى أنه "مجموعة أجزاء ذات علاقات فيما بينها كأجزاء ومع المجتمع كوحدة متكاملة مكونة منها على نسق يخضع لقوانين مشابهة لقوانين الطبيعة"[(1)]. وذهبت تعريفات أخرى إلى أن المجتمع هو العادات والعلاقات البينية بين أجزائه دون اشتراط وجود النظام جزءاً منه[(2)].

وظهر مفهوم البناء الاجتماعي في العلوم الاجتماعية الحديثة ليركز على مفهوم كلمة البناء، انطلاقًا من أن كلمة البناء تفترض وجود نوع من الترابط والتنسيق والترتيب والتساند، ليفيد بأن المجتمع يتكون من وحدات جزئية هي بمثابة مادته ولكن بينها تماسك وترتيب وتنظيم[(3)]، وأولى وحدات البناء الجزئية هو الإنسان، بحكم أنه كائن اجتماعي له وجود طبيعي مع قبيلته أو قومه، ويقيم علاقات إنسانية مع الناس الآخرين، بما يقتنعون به من قيم ووعي وثقافة.

---

(1) أحمد، أكبر. **نحو علم الإنسان الإسلامي "تعريف ونظريات واتجاهات"**، ترجمة: الدكتور عبدالغني خلف الله، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، وعمان: دار البشير، الطبعة الأولى، 1410هـ/1990م، ص24.

(2) المرجع السابق، ص25.

(3) الدسوقي، فاروق. **مقومات المجتمع المسلم**، بيروت: المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، 1406هـ/1986م، ص16.

لقد عبر القرآن الكريم عن هذه المعاني الاجتماعية في أهمية بناء الوحدة الاجتماعية للمسلمين والمؤمنين، في حديث القرآن الكريم المكثف عن صفات "الذين آمنوا وعملوا الصالحات"، كما في حديثه عن عباد الرحمن بقوله تعالى:
﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ
يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا
كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ
ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا
يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ [الفرقان: 63-68].

فهذه الآيات تورد صفات المجتمع المنشود من خلال أوصاف أهله الذين يمشون على الأرض هوناً، فلا يتكبرون ولا يتجبرون، والذين يدعون إلى السلام بين الناس، فلا يقتلون النفس التي حرمها الله إلا بالحق، ولا ينتهكون حرمة المجتمع بالزنا، ولا يفعلون الإثم، وقد امتزجت المطالبة بالأخلاق الحسنة مع السجود لربهم ودعائهم له فلا يدعون أحداً غيره، ليكون الترابط الاجتماعي الإسلامي على القيم العلمية، وقد عبر القرآن الكريم عن هذا الوجود الاجتماعي الذي ينتقل من المستوى الطبيعي للاجتماع البشري إلى المستوى الثقافي بمصطلح الأمة.

لقد وردت كلمة الأمة في القرآن الكريم عشرات المرات، وقد تركز ذكرها في المرحلة الوسطى من نزول السور القرآنية بحسب ترتيب النزول التاريخي، فلم تذكر في السور المكية الأولى، وقليلاً ما ذكرت في السور القرآنية الأخيرة، ولكننا نجد ذكرها في السور المكية المتأخرة كثيفاً، فقد ورد ذكر الأمة في السور المكية وبالأخص المتأخرة منها في واحد وخمسين مرة، ووردت في السور المدنية أربع عشرة مرة، ولم تذكر كلمة الأمة في سورة التوبة وهي آخر سور القرآن نزولاً، ولا في كثير من السور المدنية كذلك، وورد ذكرها مرة واحدة في سورتي النساء والمائدة وهي من السور المدنية الطوال نسبياً، في حين ورد ذكرها في سورة النحل سبع مرات، وسورة النحل من أواخر السور المكية نزولاً؛ أي من السور

التي نزلت في السنوات الثلاث قبل الهجرة النبوية الكريمة إلى المدينة المنورة، والتي نصفها بالمرحلة المدنية.[1]

إن تركيز ذكر كلمة الأمة في السور القرآنية في المرحلة المكية المتأخرة وفي أوائل السور المدنية يحمل دلالات مهمة، ومنها أن مرحلة تكوين الأمة الإسلامية قد بدأت في مكة المكرمة، وقبل الهجرة النبوية بعدة سنوات، قد لا تقل عن خمس سنوات تقريباً، في حين ركزت السور المكية الأولى على بناء الإنسان الفرد، المسلم المؤمن؛ أي على الصفات الشخصية للإنسان، ولذلك وردت كلمة الإنسان في السور المكية الأولى كثيراً، وورد فيها نداء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ بالصفة الفردية، وهدف ذلك التركيز على بناء الإنسان المتمسك بالعلم الحق، والمصدق به، والعامل بمقتضاه، والمنتمي إلى الحق والحقيقة عن وعي ذاتي، فإذا ما تحقق ذلك في إنسان ما، وصفه القرآن الكريم بالإنسان المؤمن كما سبق بيانه.

أمّا السور المكية المتوسطة والمتأخرة فركزت على مخاطبة المجتمعات الإنسانية بمكوناتها الطبيعية أو المكتسبة، من خلال نداء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، الذي ينادي الناس في جموعهم ومكوناتهم الطبيعية العشائرية أو غيرها، فهذا النداء فيه خطاب للمجتمعات ومكوناتها القومية والثقافية والاقتصادية، وقد استمر هذا النداء في السور المدنية الأولى، ولم يقتصر على المرحلة المكية ولا المدنية، لأنَّ الخطاب للمجتمعات الإنسانية بقي مفتوحاً إلى يوم الدين.

أما الخطاب الأكثر وروداً في السور المدنية فقد كان الخطاب الخاص بالأمة المسلمة المؤمنة ومن يمثلها من المؤمنين اجتماعياً وسياسياً، وليس اجتماعياً فقط، وهو الذي ورد في نداء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وقد تركز على تنظيم شؤون الدولة الإسلامية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية، ولذلك وردت فيها كلمات العهود والمواثيق والجهاد والقتال كثيراً، فنداء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، هو خطاب موجه إلى الهيئات السياسية القائمة على شؤون المجتمعات

---

(1) نزال، عمران سميح. **فلسفة القوة وتكوين الدولة في الإسلام**، عمان: دار القراء، ودمشق: دار قتيبة، الطبعة الأولى، 1429هـ/2009م، ص18.

الإسلامية ودولهم، وهدف ذلك تحديد الجهة أو الهيئة أو الأمة أو الجماعة أو الأجهزة التي تقوم على أمور المسلمين العامة بما يصلحها، أي بهدف بناء الدولة القانونية الدستورية.[1]

لقد كان من مهمة السور الوسطية في تاريخ النزول التركيز على فكرة بناء الجماعة الإنسانية المثقفة، والمصدقة بالعلم والملتزمة بالأخلاق العامة والممارسة للتزكية الجماعية، والتي يمكن وصفها بالمصطلحات الحديثة بالمجتمع المدني، ولذلك كثر في هذه المرحلة الوسطية نداء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾، مخاطبة للقوى الاجتماعية الفاعلة فيه، وهي التي تشكل في الواقع ما أطلق عليها القرآن الكريم اسم الأمة، فالأمة جمع إنساني مثقف، فمصطلح الأمة ليس اسماً لمجرد وجود جمع بشري، وإنما لكل جمع بشري مثقف، بغض النظر عن صحة هذه الثقافة أو مصدرها، وإذا ما التزم جمع بشري بأحكام الإسلام وصف هذا الجمع بالأمة المسلمة، أو بالمسلمين أو بالمؤمنين، فهذه أسماء وأوصاف ليست للصيغة اللغوية الجماعية فقط، وإنما لما تحمله من معان وقيم ووظائف، وهو ما بينته السنة النبوية في المادة الأولى من دستور المدينة المنورة وفيها: إن المسلمين والمؤمنين أمة واحدة من دون الناس[2].

---

(1) العوا، محمد سليم. **في النظام السياسي للدولة الإسلامية**، القاهرة: المكتب المصري الحديث، الطبعة الثانية، 1978م، ص8.

(2) حميد الله، محمد. **مجموعة الوثائق السياسية العهد النبوي والخلافة الراشدة**، بيروت: دار النفائس، بيروت، الطبعة السادسة، 1407هـ/1987م، ص59. انظر أيضاً:

- حافظ، عبد السلام هاشم. **سيرة نبي الهدى والرحمة**، مكة المكرمة: منشورات: رابطة العالم الإسلامي، الطبعة الأولى، 1402هـ/1982م، ص169.
- العمري، أكرم ضياء. **المجتمع المدني في عهد النبوة خصائصه وتنظيماته الأولى**، المدينة المنورة: منشورات الجامعة الإسلامية، في المدينة المنورة، الطبعة الأولى، 1403هـ/1983م، ص107.
- هلال، محمد. **مفاهيم معاصرة في ضوء الإسلام**، عمان: دار البشير، الطبعة الأولى، 1413هـ/1992م، ص90.
- الشعيبي، أحمد قائد. **وثيقة المدينة (المضمون والدلالة)**، قطر: سلسلة كتاب الأمة، قطر، الطبعة الأولى، ذو القعدة 1426هـ، كانون أول 2005 ـ كانون ثاني 2006م.

مصطلح الأمة في القرآن الكريم هو جمع بشري إنساني ميزته الأساسية الثقافة المشتركة[(1)]، التي يكون مصدرها رسالة نبوة قائمة، أو رسالة نبوة سابقة مثل أهل الكتاب أو غيرهم، فكل جمع بشري أو قوم بُعث فيهم رسولٌ منهم أطلق عليهم القرآن الكريم مصطلح الأمة، فقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: 24]، فكل قوم أرسل فيهم نذير من الله تعالى هم أمة وحدهم، وهذا المعنى تأكد في كثير من السور المكية منها، قول الله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس: 47]، وقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [غافر: 5]. فالأساس الإسلامي لقيام الأمة هو الأساس المعرفي أيضاً، وليس الأساس العرقي ولا القومي ولا اللغوي ولا العنصري، وإنما الأساس المعرفي الذي يؤسس لهوية الأمة وخصوصيتها.

هذه الحقائق تجعل الأمم مثل أفراد الناس في البحث عن هويتها ومهمتها، ومعنى وجودها، ومقاصدها ووظيفتها في هذه الحياة الدنيا، وفي كيفية نجاتها وخلاصها وفلاحها في الدنيا وفوزها في الآخرة، فالأمم الحية الواعية مثل الإنسان العاقل المفكر، لا يهدأ لها بال ولا يستقر لها حال حتى تحقق لنفسها هويتها الفكرية العاقلة ومصالحها الدنيوية الصالحة النافعة، وتجنب نفسها الجهل والضلال وتدرأ عن نفسها المفاسد والأضرار، فإذا ما تكونت الأمة في وجودها الطبيعي والمعنوي، صار الانتماء إليها قائمًا على الانتماء الطبيعي من جهة والانتماء المعنوي من جهة أخرى.

الانتماء الطبيعي نتيجة لطبيعة الحياة البشرية والاجتماع البشري الذي يتكون من أسرة وعائلة وقبيلة وعشيرة وقوم وبلد ولغة وغيرها. والانتماء المعنوي يرتبط بالانتماء إلى الأساس المعرفي الذي يقتنع به الإنسان، مثل الانتماء إلى

(1) الدسوقي، **مقومات المجتمع المسلم**، مرجع سابق، ص122.

المعاني الصادقة والقيم العادلة، سواء كانت قيماً دينية أو فلسفية. وحتى نفرق بين الانتماء الطبيعي والانتماء المعنوي، نصف الانتماء الطبيعي بالانتماء إلى المجتمع، والانتماء المعنوي بالانتماء إلى الأمة، ويمكن الاصطلاح على أن الانتماء الاجتماعي هو ما يغلب عليه الأسباب الطبيعية في الانتماء، أمّا الانتماء للأمة فهو ما يغلب عليه الانتماء إلى القيم والأفكار الدينية أو الفلسفية.

ومن هنا تأتي حاجة المجتمعات إلى من يهديها إلى الطريق المستقيم، من أجل بناء الانتماء فيها على القيم العادلة، كما يحتاج أفراد الناس إلى من يرشدهم ويعلمهم، بدليل أنَّ التأسيس المعرفي للأمة اقترن بالعلم والتعليم، كما في دعاء تكوين الأمة من إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى:﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: 128–129]، فالأمم تتكون بعلمها وحكمتها وأخلاقها، قبل أن تتكون بأشخاصها وأفرادها، وتأتي قوتها المعنوية من جهة هوية تكوينها ورشد المكونين لها، وهوية التكوين هي صفات الأمة ومميزاتها الفكرية والثقافية، ورشد المكونين هو رشد أهلها من المؤسسين الأوائل، ومن يخلفهم بإحسان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لقد بدأت خطوات التكوين الطبيعي للمجتمع الإسلامي منذ السنة العاشرة للبعثة، عندما بدأت الجهود الحثيثة لتكوين المجتمع المسلم في يثرب، بهدف تمكين الأمة المسلمة من الوجود على أرض الواقع الدولي، وهذا يعني أن مرحلة تشكيل المجتمع هي خطوة إجرائية لتكوين الأمة، وأن مرحلة تكوين الأمة مرحلة وسيطة بين تشكيل الفرد وتشكيل المدينة بالمفهوم السياسي؛ أي الدولة. وعمدة تشكيل الأمة وشرعيتها أن تقوم على حرية أفرادها وعقلهم الكلي وعلمهم الذي يؤمنون به، فهو الذي يشكل بمجموعه حرية الأمة وعقلها وعلمها، فقال تعالى في سورة النحل المكية:﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ

obeikan.com

بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: 19-39].

كان اللقاء الأول بين النبي عليه الصلاة والسلام وستة نفر من أهل يثرب في العام العاشر من البعثة[1]، وقد أسلموا في ذلك اللقاء، ولما عادوا إلى يثرب: "دعوا قومهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكرٌ من رسول الله ﷺ."[2] فهؤلاء الستة نفر قاموا بالدعوة إلى القيم الدينية العادلة، وفي ذلك دلالة على أنَّ دعوتهم لم تحصر نفسها بالأفراد فقط، وإنَّما أوجدت حركة اجتماعية تتحدث عن الإسلام في كل مكان تصدق به وتطمئن إليه وتعمل بمقتضى آياته، وجعلت من انتماء أفراده للدين الجديد انتماءً للمجتمع وقيمه العادلة، ومن الانتماء لقيم المجتمع انتماء إلى الدين كذلك.

هذه الحركة الاجتماعية اليثربية هي التي مهدت لبيعة العقبة الأولى، التي وصفت ببيعة النساء، بسبب بنودها الاجتماعية، "حتى إذا كان العام المقبل؛ أي الحادي عشر للبعثة، وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلقوه بالعقبة، وهي العقبة الأولى، فبايعوا رسول الله ﷺ بيعة النساء، وذلك قبل أن تفرض الحرب.[3]

لقد أسس المؤمنون من الأوس والخزرج مجتمعهم اليثربي المسلم بعد بيعة العقبة الأولى، على معاني هذه الآيات من سورة النحل وغيرها التي نزلت في هذه المرحلة، لأنها كانت تهدف إلى تكوين الأمة المسلمة فعلياً في يثرب، قبل هجرة النبي عليه الصلاة والسلام إليها، وفي مرحلة التكوين طلبوا من النبي

(1) العمري، أكرم ضياء. **السيرة النبوية الصحيحة**، المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، 1412هـ/1992م، ج1، ص194، وعزاه لمسند أحمد ج3، ص322، وفتح الباري لابن حجر ج7، ص222، وحسنه، ومستدرك الحاكم ج2، ص625، وأقره الذهبي.

(2) ابن هشام، **السيرة النبوية**، تحقيق: سيد بن رجب، المنصورة: دار ابن رجب، 1423هـ/2003م، ج2، ص273.

(3) المرجع السابق، ج2، ص273.

عليه الصلاة والسلام أن يرسل معهم مصعب بن عمير يعلم أهل يثرب القرآن ويفقههم أمور دينهم، من أجل صناعة القناعات الاجتماعية والمدنية، وليس صناعة القناعات الفردية فقط، لأنَّ القيادات الفردية كانت قد أسلمت في العقبة الأولى وقبلها، ولكنها تحتاج إلى من يعلم الناس قيم هذا الدين، ومعاني هذه الرسالة الدينية الجديدة، وأن يعلمهم معاني الخير والمعروف ويحذرهم من معاني الشر والمنكر؛ أي يعلمهم قوانين الحياة الاجتماعية الجديدة، وأسس الانتماء العلمي القويم.

ولما وصلت الدعوة في يثرب إلى المرحلة الاجتماعية، وتأكد فيها الانتماء الاجتماعي، جاءت بيعة العقبة الأولى لتتجاوب مع متطلبات التكوين الاجتماعي وتكوين المجتمع المسلم. وكانت بيعة العقبة الأولى بيعة اجتماعية بامتياز، وقد وصفتها كتب السيرة النبوية ببيعة النساء، أمّا بيعة العقبة الثانية فكانت بيعة سياسية، وقد وصفتها كتب السيرة ببيعة الحرب، بالنظر إلى بنودها، كما روتها كتب الحديث الصحيحة والسنن والمسانيد والسيرة النبوية. ونختار رواية الإمام البخاري رحمه الله، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وكان شهد بدرًا، وهو أحد النقباء ليلة العقبة: أن رسول الله ﷺ قال، وحوله عصابة من أصحابه: "تعالوا بايعوني على أن: لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف. فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه، فبايعناه على ذلك."[1]

هذه شروط بيعة العقبة الأولى، وكما هو واضح فهي بيعة اجتماعية كما عرفتها كتب السيرة ببيعة النساء، وكلها تركز على بناء مقومات المجتمع الإسلامي النظيف، وأساسها رفض الكفر الفكري الذي عبر عنه: أن لا تشركوا بالله شيئاً،

(1) البخاري، الأمام محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري**، كتاب مناقب الأنصار، بيروت: دار الفكر، الطبعة الأولى، 1411هـ/1991م، حديث رقم (3892)، ج4، ص303.

ورفض الكفر الأخلاقي والاجتماعي والاقتصادي، بعدم السرقة وعدم الزنا وعدم القتل وعدم البهتان وعدم المعصية في معروف، و"المعروف: اسم جامع لمكارم الأخلاق، وما عرف حسنه ولم تنكره القلوب، وهذا معنى يعمّ الرجال والنساء. وذكر ابن إسحاق في رواية يونس فيما أخذه عليه السلام عليهن: أن قال: ولا تغششن أزواجكن"[1]، ودخول أداة النفي (لا) على النواهي السابقة تفيد أن تجنب هذه النواهي هو ضمانة قيام المجتمع الإسلامي المنشود في المدينة، وهي ضمانة قيام كل مجتمع إنساني على السلام والأمان والنظافة والطهارة، وهي تؤكد أن الحكمة أساس البناء السليم.

لقد بدأ تكوين الأمة المسلمة في مكة بشخص النبي عليه الصلاة والسلام أولاً، فقد كان أمة وحده عليه الصلاة والسلام، وتوسع التكوين للأمة عندما آمن به العشرات من أبناء مكة ثانياً، ولكنه لم يكن من الممكن أن يكتمل تكوين الأمة المسلمة ويعلن عن وجودها قبل أن تمر في مرحلة المجتمع، والمجتمع يحتاج إلى الدار؛ أي الأرض والشعب والشوكة والقرار، وهو ما لم يتحقق في مكة طوال مرحلة الدعوة النبوية قبل الهجرة، ولذلك وجهت العناية الإلهية الرسول عليه الصلاة والسلام إلى اكتشاف يثرب في رحلة الإسراء من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس، فتحولت الدعوة النبوية نحو يثرب، لعلها تكون أنجح في بناء المجتمع المسلم، ولعل تكوينه يكون من أهل يثرب أولاً، ثم من أهله الأنصار بعد استقبالهم للمهاجرين في مجتمعهم ودارهم وحمايتهم.

ثالثاً: الانتماء السياسي للأمة

في السنوات الأخيرة من المرحلة المكية تحولت يثرب إلى مجتمع مسلم، وقد كان ذلك قبل الهجرة النبوية إليها، بفضل الاتصالات التي جرت بين النبي

(1) السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن. **الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام**، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1418هـ/1997م، ج2، ص251.

عليه الصلاة والسلام وبعض أهل يثرب من الأوس والخزرج، والتي توجتها لقاءات المواسم، في العام العاشر والحادي عشر والثاني عشر، وبالأخص في بيعة العقبة الأولى ثم الثانية، وكلها كانت لقاءات تعبر عن مواقف إيمانية عملت على تشكيل يثرب لتصبح مجتمعاً مسلمًا، على أساس الانتماء الواعي من أفراد المسلمين أولاً، ثم على أساس الانتماء الاجتماعي لهذا المجتمع الجديد، حتى تمكن الانتماء الاجتماعي الواعي من عموم المسلمين.

إنَّ وعي الانتماء الفردي أخذ يعمل لبناء المجتمع الجديد، الذي يشارك فيه كل مؤمن بقيمه الإسلامية الجديدة، بحكم أنَّ الانتماء فيه كان للقيم العادلة التي جاء بها الدين الجديد، وأصبح أهل يثرب في تماسك وتضامن معنوي قوي وكبير، والجميع يشعر ويعمل للوحدة الاجتماعية في الأخوة والتعاون والتضامن والنصرة، فصارت يثرب مجتمعاً مسلماً متماسكاً، دون اشتراط أن يكون جميع سكانه من المسلمين، وكان يكفي أن معظم سكانه من مكونات المجتمع الطبيعية؛ أي من الأوس والخزرج، والقيم السائدة فيه هي قيم الدين الجديد، تتجسد بأهل يثرب ومن هاجر إليهم من أهل مكة، فجميعهم يشعرون بالجسم الواحد والبنية الواحدة التي اجتمعوا عليها. عند ذلك فقط سعت قواه الاجتماعية إلى المرحلة الثالثة بنفسها وبإرادتها الحرة، وهي مرحلة تقرير المصير، وامتلاك السيادة واستقلال القرار.

إن المرحلة الثالثة هي تخطيط القوى الفاعلة في المجتمع لتنظيم نفسها سياسياً، وفي هذه الحالة استقر رأي المجتمع المسلم في يثرب على دعوة النبي عليه الصلاة والسلام إلى المجيء إليهم في يثرب، وفي قول جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنه دليل على ذلك: "فقلنا: **حتى متى نترك رسول الله يطرد في جبال مكة ويخاف**، فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه الموسم، فواعدناه شعب العقبة، فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين حتى توافينا، فقلنا: **يا رسول الله نبايعك**، قال تبايعوني على: **السمع والطاعة** في النشاط والكسل، **والنفقة** في العسر

واليسر، وعلى **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، وأن تقولوا في الله **لا تخافون في الله** لومة لائم، وعلى أن **تنصروني** فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة."(1)

وفي رواية أخرى قال جابر:" قلنا يا رسول الله على ما نبايعك؟ قال: على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في الله، لا تأخذكم في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت إليكم، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة."(2)

إن الاتفاق على بيعة العقبة الثانية بين النبي عليه الصلاة والسلام وأهل يثرب يكشف عن أمور هامة في فقه المجتمع والأمة والدولة، نذكر منها:

- أن هذه البيعة تمثل عقداً سياسياً متكاملاً بدليل بنوده السياسية أولاً، وما ترتب عليه على أرض الواقع في تكوين الدولة الجديدة ثانياً.
- أن البند الأول في هذا العقد السياسي هو في تحقيق الانتماء للأمة بمعناه السياسي، المتمثل في السمع والطاعة في النشاط والكسل، وهذا نص على وجوب الانتماء بمعناه السياسي لأئمة الأمة المسلمة. وقد أقام الرسول عليه الصلاة والسلام الانتماء على المرجعية القانونية العليا المسماة بالشريعة، وهي التي تضبط حركة الأفراد في حياتهم الخاصة وحقوقهم فيها، وتضبط

(1) العمري، أكرم ضياء. **السيرة النبوية الصحيحة**، مرجع سابق، ج1، ص 198، وعزاه لمسند أحمد 3/ 322، بإسناد حسن، ومستدرك الحاكم 624/2، وصححه وأقره الذهبي.

(2) المباركفوري، صفي الرحمن. **الرحيق المختوم**، مكة المكرمة: منشورات رابطة العالم الإسلامي، الطبعة الأولى، 1400هـ/1980م، ص 166، وقال: رواه الإمام أحمد بإسناد حسن، وصححه الحاكم وابن حيان، وعزاه لمختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله النجدي ص155، وقال: روى ابن إسحاق ما يشبه هذا عن عبادة بن الصامت، وفيه بند زائد، وهو "أن لا ننازع الأمر أهله" انظر ابن هشام 454/1. وانظر كذلك:

- ابن عبد الوهاب، الإمام محمد. **مختصر زاد المعاد**، بيروت: دار القلم، (د.ت.)، ص132.

obeikan.com

الحياة العامة وحقوق المسلمين فيها، وتضبط علاقات الدولة الإسلامية بالأمم الأخرى. وحفاظًا على حقوق هذا المجتمع وعقده الاجتماعي فقد شرع الإسلام واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخلياً، وللحفاظ على عقده السياسي شرع الإسلام حق حماية هذا العقد بالجهاد لأهميته ومكانته ودوره في حفظ الحياة الإسلامية المستقيمة.

- أن قرار تكوين هذا العقد السياسي بالدعوة إليه والقيام به كان من المؤمنين أنفسهم، وبحرية سياسية تامة، بدليل أن المسلمين والمؤمنين من أهل يثرب هم المبادرون إلى البيعة أولاً، وعدم ترك الرسول عليه الصلاة والسلام مطارداً في مكة ثانياً، ولذلك اشترط عليهم النبي عليه الصلاة والسلام وعمه العباس الشروط المغلظة في البيعة، فقال العباس لهم: "فإن كنتم ترون أنكم وافون له ما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحمَّلتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده."[1]

- أن طلب الهجرة كان من أهل الحل والعقد في يثرب، بدليل قبولهم لكل شروط العباس بن عبد المطلب في التوثق لأمر ابن أخيه: أن لا يسلموه ولا يخذلوه. فهذا يؤكد أنَّ أهل العقد والحل من الأوس والخزرج هم الذين طالبوا بهجرة النبي عليه الصلاة والسلام إليهم؛ إذ كيف يشترط رجل على قوم شروط هجرته إلا أن يكونوا قد طلبوا منه ذلك، وإن وافق ذلك رغبته عليه الصلاة والسلام.

- أن أهل يثرب لم يقدموا على ذلك إلا بعد أن أصبحت يثرب مجتمعاً مسلماً، قراره بيد أهله، وأنهم كانوا أحراراً في أفعالهم، ومستقبل المجتمع المسلم كان بيد أهله، بإرادتهم وقناعتهم، ومن كافة مكوناته الاجتماعية كلها، أو معظمها، إذا استثنينا غير المسلمين فيها، من مشركين ويهود، والدليل على

(1) المباركفوري، **الرحيق المختوم**، مرجع سابق، ص166.

ذلك أن بنود العقبة الثانية كانت بعد بنود بيعة العقبة الأولى بعام كامل، وأنها غير بنود العقبة الأولى، التي ركزت على الشؤون الاجتماعية قبل السياسية.

هذه بعض الأمور التي نذكرها عن مفهوم العقد الاجتماعي، أو البيعة الاجتماعية، ومفهوم العقد السياسي أو بيعة الأمة السياسية أو بيعة رئاسة الدولة، بحكم بنودها، لأنَّ شرطها الأول: السمع والطاعة في النشاط والكسل. وهذا أهم شرط في وجود الدولة الحاكمة، ثم الركن الثاني وهو النفقة في العسر واليسر، والركن الثالث: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذه البنود تعطي مفهومًا جديداً للانتماء الواعي للوجود الجديد، وهو انتماء يترتب عليه تحمل مسؤوليات سياسية، تفوق المسؤوليات الاجتماعية السابقة، ولذلك كان الانتماء السياسي يعني تحمل المسؤولية على أكبر مستوى وتضحية.

هذه البيعة السياسية ما كان لها أن تنجح وتؤسس دولة المدينة المنورة لو لم ينجح المؤمنون قبلها في تأسيس المجتمع المسلم في يثرب؛ أي ما كان للأمة السياسية أن توجد على أرض الواقع وإعلان وجودها أمة واحدة من دون الناس لو لم تكوِّن الأمة قبلها مجتمعاً مسلماً قوياً وقويماً في يثرب، وذلك قبل الهجرة النبوية المباركة، وما كان للمؤمنين أن ينجحوا في ولائهم السياسي للدولة المدنية لولا نجاحهم في الانتماء القوي إلى المجتمع في يثرب، فالانتماء للأمة السياسية مرتبة أعلى من الانتماء إلى المجتمع المسلم، والنجاح في الانتماء إلى المجتمع المسلم شرط للنجاح في الانتماء للأمة السياسية التي يحق لها أن تسعى لتكوين عقدها السياسي وتكوين دولتها.

إنَّ من أهم ما نركز عليه في هذا البحث هو أنَّ القرآن الكريم قد أسس لمفهوم الأمة الاجتماعي قبل تأسيسه لمفهوم الأمة بالمعنى السياسي، وقد تحقق ذلك في السيرة النبوية الثابتة، وتجسد في تاريخ الأمة في عهدها الأول قبل الهجرة النبوية وبعدها، وكل هذا التركيز في الأصول والمصادر الشرعية، من الكتاب والسنة والإجماع يعتبر أدلة قاطعة في الثبوت وقاطعة في الدلالة

على أهمية فقه الانتماء إلى المجتمع والأمة في الإسلام، وأنها لم تتوقف على النصوص النظرية، وإنَّما تم تنفيذها على أرض الواقع، لتكون سنة حضارية في تكوين المجتمع والأمة إلى يوم الدين.

ونركز هنا على أن في أيدي المسلمين نصوصاً شرعية كثيرة في فقه تكوين المجتمع والأمة في الإسلام والانتماء لها، ليكون ذلك منهجاً للمسلمين إلى يوم الدين، فالأمر ليس خاصاً على التكوين الأول والعهد النبوي فقط، وما حال التكوين الأول في يثرب إلا نموذج عملي استطاع أهل يثرب من الأنصار والمهاجرين من خلاله تحويل مجتمعهم إلى أمة، وجعل قرار مستقبلهم بيد الأمة، فهي التي تختار بإرادتها البقاء في مستوى المجتمع أو رفع مستواه إلى دولة، فهذا النموذج يحمل المفهوم والفكرة الأصلية، ولكنه ليس شرطاً أن يتحقق بكامل ظروفه التاريخية، فقد تم للمسلمين الأوائل ذلك خلال سنة أو سنتين، وهذا بسبب الإمكانيات التي توفرت لهم في ذلك الوقت، وهو ما قد لا يتحقق في وقت آخر أو في مكان آخر، ولذلك ينبغي العمل على توضيح فقه الانتماء للمجتمع المسلم بحكم وجوده في أرض الواقع وليس الخيال، وجعل مفهوم الأمة مفهوماً إيمانياً وعقدياً ثابتاً، والأمة هي صاحبة القرار في تحويل نفسها إلى دولة أو بقائها في صيغة مجتمع إسلامي، وذلك في حال امتلاكها لإرادتها وتقرير مصيرها بنفسها.

إنَّ الفكرة التي يؤكدها هذا المحور أنَّ المجتمع المسلم أحد مظاهر الأمة المسلمة، وأنه المرحلة الأساسية في تكوين الأمة بالمعنى العام للأمة، لأنَّ إطلاق وصف الأمة على الفرد المسلم المؤمن لا يكون إلا إطلاقاً خاصاً، وربما جاز القول بأنَّه إطلاق استثنائي، لأنَّ الدين في خطابه العام موجه إلى الناس والأقوام والأمم، وليس خطاباً إلى الأفراد فقط، ولذلك جاء خطاب الأنبياء إلى أقوامهم "يا قوم"، فإذا ما آمن بالرسول والرسالة جمع من الناس فكانوا جماعة، وليس مجرد أفراد فقط، كان هذا الجمع المؤمن مجتمعاً أو أمة، وبذلك يكون المجتمع أهم مظاهر تكوين الأمة وتشكيلها في الفعل الإجرائي.

رابعاً: دور الأمة في التوازن الاجتماعي والسياسي والتكامل بينهما

يتوزع المسلمون اليوم في عشرات الدول الإسلامية، ومعظم هذه الدول في الواقع التاريخي والمعاصر تقوم على أسس عرقية أو قومية أو جغرافية أو تراثية مذهبية أو غيرها، فهذه دولة تركية وأخرى فارسية أو ماليزية أو عربية، إلخ. وقد كان بعضها في كيان واحد قبل قرن من الزمان، سواء كان في خلافة أو في سلطنة أو في دولة أو في إمارة. وقد عرف التاريخ الإسلامي في الأربعة عشر قرناً الماضية نحو مائة وثمانين دولة إسلامية تقريباً[1]، كثير منها عاصر بعضها بعضاً، بالرغم من كونها كانت في أصل النشأة دولة واحدة في الخلافة الراشدة، ولأكثر من نصف قرن، ولكن تنوع المجتمعات الإسلامية والرغبة في استقلال الحكم السياسي جعلها تنفصل عن بعضها دون قتال في أحيان كثيرة، والرغبة في جعلها أمة سياسية واحدة كانت ولا تزال أملاً منشوداً لعموم المسلمين.

ومنذ قرن من الزمان تقريباً والمجتمعات والدول الإسلامية في تنازع قومي وسياسي، إما بفعل اجتهادات ورؤى داخلية، وإما بفعل تدخلات خارجية، وفي كثير من الأحيان لم يكن قرار استقلال الدول الإسلامية بقرار من المسلمين أنفسهم، وإنما باتفاقات دولية طامعة بالسيطرة على بلاد المسلمين، كان من أشهرها وليس آخرها اتفاقية سايكس بيكو بين فرنسا وبريطانيا، على احتلال أهم بلاد الأمة الإسلامية وتقسيمها بينهما، مما فرض على المسلمين دولاً قد لا تتوافق مع قناعات المسلمين ولا تمثل إرادتهم الانتخابية، فضلاً عن أن بعض هذه الدول كانت معادية للدين ومنتحلة للقيم الشرقية الاشتراكية الشمولية، أو منتحلة للقيم الغربية العلمانية المستبدة، وهذا أوجد بدوره تعدداً بالولاء

---

(1) بول، ستانلي لين. **الدول الإسلامية**، مع إضافات وتصحيحات بارتولد وخليل أدهم، نقله من التركية إلى العربية محمد صبحي فرزات، إشراف وتعليق محمد احمد دهمان، دمشق: نشر مكتب الدراسات الإسلامية، الإصدار الرابع، دون تاريخ. ص217. انظر أيضاً:

- زامباور، ادوارد فون. **معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي**، أخرجه: زكي محمد حسن وآخرون، بيروت: دار الرائد العربي، 1400هـ/1980م، ص515.

والانتماء من بعض المسلمين إلى تلك الدول، أو فرض الطاعة العمياء لها بحكم عدم رضا بعض المسلمين عن التقسيمات الاستعمارية الجائرة، بل أدى أحياناً إلى نفرة في الولاء وكرهٍ في الانتماء إلى هذا البلد أو ذاك، وهم في واقع الحال مواطنون فيه بحكم الإقامة الطبيعية أو الجنسية المصطنعة.

إنَّ ذلك الواقع الاستثنائي وغير الطبيعي قد أوجد ضعفاً في الانتماء إلى الوطن أولاً، وحائلاً دون الانتماء إلى الأمة الإسلامية بحرية ثانياً، فأصبح بذلك مفهوم الانتماء إلى المجتمع والأمة إما ضعيفاً أو مشكلاً على أبناء المسلمين، واضطر عدداً كبيراً منهم إلى الهجرة خارج الوطن والأمة عوضاً عن المعاناة النفسية والمادية فيها، وعدم وضع الانتماء للمجتمعات الإسلامية في سلم أولوياته. ثم إنّ بعض الدول اصطنعت معركة وهمية بين الانتماء إلى الأمة الإسلامية والانتماءات الوطنية والقومية، وبعضها حاربت الانتماء للأمة الإسلامية بحجة تعارضه مع الانتماء الوطني أو الانتماء القومي، فحدث تراجع أو إخفاء لمفهوم الانتماء للأمة إما رغبة أو رهبة، وقد تفاقم هذا التعارض بعد افتعال الغرب الحروب الظالمة مع العالم الإسلامي واحتلاله المباشر لبعض أقطارها، فأدى ذلك إلى عدّ الانتماء للأمة الإسلامية، بل والتعاطف مع قضاياها العادلة تهمة قد يعاقب عليها قانون محاربة الإرهاب، فكان لا بد والحالة كذلك من تقديم رؤى فكرية تقارب بين ما يبدو متناقضات على أنه ممكنات، لجعل الواقع المتأزم في مفهوم الانتماء قابلاً للتفاعل والتعامل بما يحقق مساراً ومصيراً أفضل، وإن لم يكن الأفضل.

وبالنظرة الفاحصة إلى مفهوم المجتمع ومفهوم الأمة في الإسلام، نجد أنهما قادران على تقديم مقاربة متينة في الانتماء للأمة والمجتمعات الإسلامية معاً، برؤية إيمانية عقدية أولاً، ثم برؤية سياسية إجرائية ثانياً، فالانتماء للمجتمع بحسب شروطه الطبيعية، وفي الغالب لا يكون الانتماء الاجتماعي إرادياً بل فطرياً، فالناس تولد وتنمو وتتكاثر وتعيش في مجتمعاتها بالوراثة الجغرافية

والمعنوية، فالأردني يولد في مجتمع أردني وكذلك المصري والمغربي والتركي وهكذا، وكلهم مسلمون مؤمنون بالإسلام، وينتمون إلى أمة واحدة وإن اختلفت هوية مجتمعاتهم الوطنية والقومية.

والانتماء للأمة الإسلامية الواحدة لا يلغي الانتماء الاجتماعي مهما كانت هويته القومية أو اللغوية أو العرقية، على أساس بيان مفهوم رسالة الإسلام في مخاطبة كل الناس وليس قومية واحدة فقط، وتكوين الإنسان المسلم المؤمن، ومفهوم المجتمع المسلم، ومفهوم الأمة المسلمة كما سبق بيانها؛ أي بيان مفهوم الأمة بالمعنى الاجتماعي، ومفهوم الأمة بالمعنى السياسي، على أساس قراءة إسلامية ومنهجية معرفية وعلمية، تستدل بالمنهجية القرآنية التاريخية؛ أي تستدل في منهجية بناء القرآن للإنسان والمجتمع والدولة بحسب ترتيب النزول، وكذلك تستدل بالسنة النبوية العملية المتمثلة في السيرة النبوية، فالسنة النبوية العملية قدمّت نموذجاً واضحاً في كيفية بناء الإنسان والمجتمع الدولة، في مكة ويثرب والمدينة، فأدلة الإسلام وأصوله الاجتماعية والسياسية تملك قدرة على تفصيل الأمور بما يؤهل المسلمين التعامل مع الواقع بإيجابية، وبرؤية واضحة، عقدياً وفقهياً وسياسياً.

قبل ظهور الأمة المسلمة استخلف الله أمة من ذرية إبراهيم وإسحاق ويعقوب وفضلهم على العالمين، ولكنهم نقضوا عهدهم وكفروا بآيات الله وقتلوا أنبيائهم وعصوا أمر ربهم، فكان عاقبة أمرهم أن نسخ الله ما لهم من فضل، ونزع ما في أيديهم من مقام النبوة الأخيرة، دون ظلم لأحد من ذرية إبراهيم عليه السلام، ولا لأحد من العالمين، وتحقق العدل الإلهي، بإعادة الدين إلى الناس كافة بعد أن حصره بعض أهل الكتاب بأنفسهم وقوميتهم وشعبهم المختار بزعمهم، واتسعت دائرة الأمة الخيرة لكل إنسان من ذرية آدم عليه السلام إذا أسلم وجهه لله، ولكل مؤمن بالله، بغض النظر عن عرقه أو لونه أو لغته، بأن يكون من الأمة الخيرة، التي وصفها القرآن بالأمة الوسط وجعل من وظائفها الشهادة على الناس.

الخاتمة

الانتماء الواعي ضمانة الحفاظ على المجتمع والأمة

إن وجود الأمة المسلمة هو السبيل العملي الوحيد لإيجاد الإسلام في الحياة والحفاظ عليه، فمهما بلغ عدد الأفراد من المسلمين فإنه لا قوة لهم، حتى يوجد بينهم شعور بالانتماء إلى أمة واحدة، بل لا إيمان لهم إن لم يكونوا يؤمنون بالانتماء إلى الأمة المسلمة الواحدة، فالأمة المسلمة هي أساس التوازن الاجتماعي للمسلمين في قراهم ومدنهم ودولهم، بدليل قوله تعالى:" ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:1-3] فالسورة الكريمة تشترط في خلاص الإنسان المفرد الانتماء إلى الأمة والجماعة، الذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ أي الأمة المؤمنة الملتزمة بالإصلاح الاجتماعي.[1]

لقد استغرق بناء فقه الانتماء عند الصحابة عدة سنوات؛ إذ بدأ تكوين المجتمع المسلم في يثرب منذ العام العاشر من البعثة، لأن تكوين المجتمع المسلم أو الأمة، بتعبير القرآن، هو الضمانة الحقيقية لإقامة الحياة الإسلامية القويمة، سواء في حياة النبي عليه الصلاة والسلام أو بعدها، فلم تؤسس الحياة الإسلامية في المدينة المنورة إلا بعد تشكيل مفهوم الأمة الاجتماعي في أواخر العهد المكي أو في العهد اليثربي بالتحديد، من خلال انتشار القيم الإسلامية بين أهل يثرب وإيمانهم بها وإقامة مجتمعهم على أساسها، وكذلك تحددت في مبادئ بيعة العقبة الأولى، وسبب ذلك أن مفهوم الأمة يمثل إرادة وعقول كل المسلمين والمؤمنين المكونين لذلك المجتمع، فهو في المفهوم الاجتماعي الإسلامي يمثل إرادة وإيمان أفراد المسلمين وجماعاتهم، وقوته من قوة إيمان أفراده وجماعته، وقوة الإيمان هي قوة التصديق العقلي بالعلم المنزل من الله تعالى والاطمئنان إليه

---

(1) نزال، عمران سميح. **دور التراث في بناء الحاضر وإبصار المستقبل**، الدوحة: مركز البحوث والدراسات لجائزة الشيخ علي بن عبدالله آل ثاني، الطبعة الأولى، شوال1427هـ/2006م، ص220.

obeikan.com

والعمل بمقتضاه، وبقدر ما يحصل التصديق بالعلم والعمل بمقتضاه تكون قوة المجتمع حقيقة، ما لم يحاربه أعداء العلم من المفسدين والمترفين.

وقوة المجتمع المسلم في هذا المستوى مستمدة كذلك من قوة انتماء أفراده المؤمنين لمجتمعهم وحفاظهم عليه، بحكم إيمانهم بالله تعالى وإيمانهم بالقيم الإسلامية، في المساواة بين البشر، وحرية الإيمان وعدم الإكراه فيه، والعدل بين الناس، وحفظ الحقوق الخاصة والعامة، ومنع الاعتداء وتحريمه، ونصرة المستضعفين وأمنهم، وحفظ الحرمات والأعراض وصونها، وبناء المجتمع على الأخوة بين المؤمنين والمحبة بينهم والموالاة على الحق، فالانتماء للمجتمع المسلم هو انتماء للقيم الإسلامية العادلة، فلا يتخلى المسلم عن الانتماء لمجتمعه ولو وقع في الإثم خطأ أو جهلاً، وإنما يحافظ على انتمائه لمجتمعه بقدر إيمانه بالقرآن الكريم وبيانه النبوي العظيم.

ولذا فإن الأمة المسلمة بالمفهوم الاجتماعي هي سياج حماية للقيم الإسلامية الطاهرة والعادلة، وهي سياج حفظ أبناء المسلمين بعيداً عن الرذيلة والفاحشة، فلا يملك أحد هدم المجتمع المسلم ما دامت القناعات بالإسلام قائمة في عقول المسلمين وقلوبهم، سواء استطاعوا رفع مستوى مجتمعهم إلى المستوى السياسي الذي شرعه الإسلام في العقد السياسي، أم لم يستطيعوا، لأن الاستطاعة السياسية منوطة بالقدرة المادية على ذلك، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها، وإذا ما وجد حائل بين مجتمع إسلامي وتقرير مصيره السياسي، وحال دون تحويله من مجتمع أو أمة بالمفهوم الاجتماعي إلى دولة أو إلى أمة بالمفهوم السياسي، وكان هذا الحائل أكبر من قدرات المجتمع فإن ذلك المجتمع قد أدى ما عليه في حق الله تعالى في هذا المستوى.

فالأصل يقوم على معرفة الإنسان المسلم بمكانته ووظيفته في الإسلام، وهو ما نذكره في نقاط:

- الإنسان مخلوق قارئ ومكرم من الله تعالى بطبيعته الإنسانية.

- المسلم هو من ارتضى أن يكون له عقد سلام مع الله تعالى، وهو مميز في عبادته لله تعالى بالعبادة العلمية أولاً، ثم بالعبادة العملية النسكية والشعائرية.
- المسلم المؤمن هو من يتعلم بنود العقد مع الله ويصدق بها ويطمئن إليها ويعمل بمقتضاها.
- المسلم أخو المسلم، والمؤمنون إخوة في الدين، وحيثما اجتمعوا فإن بينهم الموالاة والنصح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.
- المؤمن ينتمي لمجتمعه وأمته إيمانياً وعقدياً وفقهياً وسياسياً. والانتماء شعبة من شعب الإيمان، وقوة الانتماء قوة في الإيمان وضعفه ضعف في الإيمان، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان.
- العمل بالانتماء تكليف، والتكليف حق وواجب على كل مسلم، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.
- الانتماء إلى المجتمعات الإسلامية المعاصرة لا يتعارض مع الانتماء إلى الأمة الإسلامية الواحدة، بحكم أن الانتماء إلى الأمة الإسلامية الواحدة موقف إيماني عقدي، والانتماء إلى المجتمعات الإسلامية المحدودة موقف فقهي وسياسي وإجرائي، بحدود ما ينفع المسلمين ويدفع عنهم الأضرار.
- الإسلام لا يلغي الانتماءات الوطنية ولا القومية في شروطها الطبيعية.

obeikan.com